"عزلة" جورج باسيل: الجسد كناقل للأفكار

محمد شرف | الثلاثاء 2025/09/30

تحت عنوان "عزلتي الحلوةMy Own Sweet Solitude"، يقيم الفنان جورج باسيل معرضه الفردي لدى "غاليريArt on 56" عارضاً مجموعة من الأعمال يحاول من خلالها استكشاف الشكل البشري والشكل الأنثوي، مضمّناً إياه التعابير الدقيقة التي تنقلها الملامح والإيماءات، والتفاعل الدقيق للألوان، وذلك في عالم ذاتي هو أقرب إلى العزلة والإنفراد بالذات.

ينبغي الإشارة، بداية، إلى أن جورج باسيل ينتمي إلى تلك الفئة من الرسامين الذين علّموا نفسهم بأنفسهم، وأعداد هؤلاء ليس بقليل في عالم التشكيل. كما من النافل القول إن هذا الأمر يتطلّب جهداً مضاعفاً، ويؤدي، في أحيان كثيرة إلى علاقة خاصة تجمع الفنان بعالم التشكيل، خلافاً لما يمكن أن يكون عليه الفنان الذي تابع دراسة أكاديمية، وبقي مخلصاً لبنودها، أو اختار طريقاً أخرى من السبل التعبيرية الكثيرة.

إذا كانت القامة البشرية، والبورتريه، أو الرأس بالمعني البيولوجي كجزء منها، كانت مثلت خلال حقبات فنية ماضية، شخصيات في عينها كصورة شخصية للموديل، فقد أصبحت هذه القامة، في الوقت الحاضر، ثمرة خيارات الفنان؛ فهو قد يستجيب لرغبته في مقارنة نفسه مجازيا بشخص، أي بقوة حية، وخلق تمثيل أصيل لها، بالتكيف مع القيود والحدود التي تفرضها المواد التي يستخدمها. في المعرض الذي نحن في صدده، يقع الدور الاستراتيجي على عاتق جورج باسيل الذي يضبط الترتيبات، والوضعية، والمكان الذي يُبرز موضوعه على أفضل وجه، ويختار للخلفية ما يراه مناسبًا من مكان جذاب أو خلفية محايدة (وهي محايدة في غالب الأحيان إن لم يكن على الدوام). هذا القصد الفني يشكل إجابة محتملة للسؤال حول القامة والبورتريه معاً، الذي يُحدده التقاء غير متماثل بين طلب ومشروع. يخوض الرسام تحديًا؛ فهو لا يبني بالضرورة صورة عن نموذج ما، بل يبحث عن الطريقة التي رُسمت بها ملامح عمله، وفي أيّ سياق، وحُددت أو كُيدت بما يؤطره.

محاكاة الواقع

يمكننا القول إن الشكل البشري لدى باسيل يعمل على تصوير الجسد كناقل للأفكار، والعواطف والروايات، مستكشفاً مكانته في الفن والمجتمع، من خلال مسائل ذات علاقة بعلم النفس والرمزية. فإلى جانب محاكاة الواقع، وهي محاكاة لا تخرج عن الإطار المجازي، أكثر منها محاكاة كلاسيكية وأكاديمية، يُصبح الشكل البشري وسيلةً للفنان لطرح التساؤلات حول الحالة الإنسانية، ومحاولة جعل الخفي مرئيًا، ولتأكيد رؤيته الخاصة للعالم وللكينونة والوجود، ولو إلى الحد الذي يسمح بع عالم التصوير. إن ما يُحدد الفردية الاستثنائية للفنان، في شكل عام ولدى باسيل أيضاً، ويميزه عن البشر العاديين، ليس خصوصية فعلٍ مُحدد، بل القدرة على "الانفصال"، أو القدرة على تحرير النفس من جميع الوسائط الرمزية (اللغة) والمادية (التكنولوجيا) التي يُدرك من خلالها الواقع لغرض الفعل.

إذ يبدو أن الانفصال هو شرط علاقة نزيهة مع العالم. وهي، للمناسبة، خاصة بالفن، ولكنها أيضًا خاصة بالفلسفة، كما عند برغسون. إن التجرّد هو القدرة على التحرر من قيود الحياة العملية والفعلية لفهم الواقع بشكل أكثر مباشرة، لا سيما من خلال الحدس. وهو يتناقض مع الإدراك العادي، الذي تُصفيه احتياجاتنا وأفعالنا، ويتيح لنا الوصول إلى الفروق الدقيقة والاختلافات النوعية في الواقع. الفنانون هم أمثلة على كائنات متجردة بطبيعتها، تُدرك ما يتجاوز التبسيط العملي للعالم.

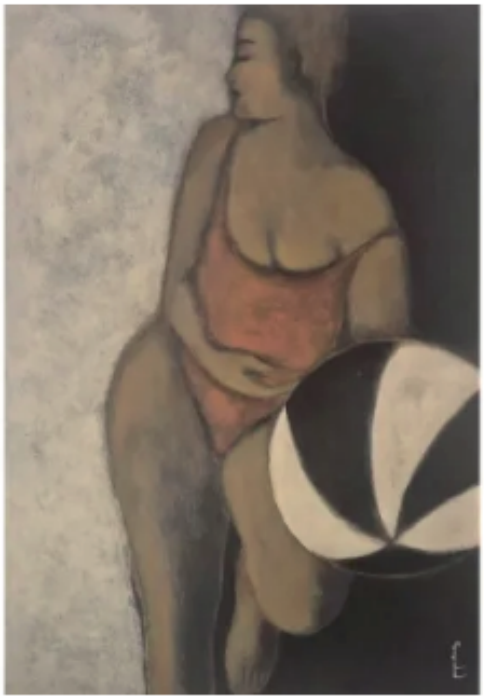

في بعض أعماله، رسم باسيل أجساداً بلا أعضاء، أمّا أثوابها الفضفاضة فيمكن النظر إليها كالحقيقة المكثفة للجسد، التي تميل إلى جعل الإحساس مرئيًا. أجساد شبه ضبابية لكنها مرئية بالتأكيد، لكن ما يمكن رؤيته يعطي تلميحًا عما يختبره الفنان نفسه. تجمع اللوحة القماشية ما هو غير مرئي، وآثار القوى والحركات، والطاقة اللازمة المستخدمة للحفاظ على الذات سليمة. وقد نتساءل كيف ينشأ الوعي الذاتي، الصورة اللاواعية للجسد؟ تُحذر الطبيبة والمحللة النفسية الفرنسية فرانسواز دولتو(1908- 1988) من الخلط بين مخطط الجسد - الذي يُحدد الفرد كممثل للنوع، والذي هو بالتالي واحد للجميع، والصورة اللاواعية للذات، الخاصة بكل منا، والمرتبطة بالذات وتاريخها. على أن عالم جورج باسيل، كما لحظنا، غارقٍ في العزلة والصمت، وهي العزلة المختارة، المقدسة، والثمينة، التي يتطور عبرها الفنان، ويصنع ما يصنعه، ويدعو النظرة إلى الراحة، من خلال مجموعة أعمالٍ تتجلى فيها بصمته، وأجواؤه، وموهبته في لمحة، في عاطفةٍ واحدة، يُعيد الفنان فيها اكتشاف موضوعاته المفضلة .

أقل اصطناعاً

هكذا تنشأ تلك العلاقة بين باسيل وما يقوم بفعله. يتوافق هذا التبادل غير المتكافئ مع أبسط المواقف، وربما الأكثر شيوعًا؛ فهو لا يحدث في كثير من الحالات التي لا يتفق فيها أحد على وضعية معينة، حيث يكون الموضوع متعديًا، أو حتى غائبًا. عندما يلتقط الفنان مشهدًا عاديًا من الحياة، كتلك الشخصية التي نراها في السيرك، أو صورة شخصية لفتاة لا نعلم من تكون صاحبتها، سوف تكون أقل اصطناعًا من صورة وزير مُحيت تجاعيده. حتى عندما تُرسم القامة الإنسانية والوجوه في الاستوديو، من دون وجود عارضة أو موديل، فإنها تستدعي الذكريات بالضرورة، وتتضمن آثارًا لوجوه، ومواقف، وإيماءات لوحظت في أوقات أخرى. إن كل شخصية تُخاطر بأن تكون صورة شخصية، وتحمل جانبًا مأسويًا لأنها تحمل أثرًا لما لم يعد موجودًا. ومن اللافت للنظر أن هذا التركيز على الماضي غالبًا ما يمنعنا من إدراك أن الصورة الفوتوغرافية أو اللوحة لا تُذكّر بالماضي بقدر ما تُعلن عما سيختفي. إن جورج باسيل، في تصويره لشخصياته، يتوقع ما سيحمله الغيب، أو ما سيؤدي إليه الواقع المأزوم.